خصائص الحمّامات العثمانية في الجزائر من خلال نماذج مقارنة بالحمامات المرابطية والمرينية

د. محمد بن حمو

أستاذ الآثار الإسلامية

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

جامعة أبي بكر بلقايد - الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد بن حمو، خصائص الحمّامات العثمانية في الجزائر من خلال نماذج مقارنة بالحمّامات المرابطية والمرينية.- دورية كان التاريخية.- العدد العشرون؛ يونيو ٢٠١٣. ص ٣١ – ٣٨.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

نحاول في هذا المقال معرفة النظام التخطيطي للحمامات العثمانية في الجزائر، وبداية نريد أن نتطرق إلى مفهوم مصطلح الحمام، ثم نعطي فكرة على أهم مميزات الحمامات التي كانت قبل العثمانيين، ونعرّج على الحمامات العثمانية في الجزائر العاصمة بشكل عام، ثم نتطرق إلى الأهمية الاجتماعية والصحية للحمام، وبعدها نذكر عمارة الحمامات العثمانية من خلال الوصف الذي قام به بعض الرحالة الغربيون، ومن ثَمَّ ندرس نماذج من الحمامات العثمانية في الشرق الجزائري ووسطه وغربه، وعليه نقوم بمقارنة هذه الحمامات مع حمامات سابقة، لنَخْلُص في الأخير إلى معرفة خصائص الحمامات العثمانية في الجزائر.

مُقَدِّمَة

الحمام: لغة حَمَّ حمّهُ: قصده، والتنور: سجره... والماء سخّنه كأحمّه وحمّه، والحمّة بتشديد الميم العين الحارة، يستشفى بها، وحممت الماء بفتحتين سخّنته، والحميم الماء الحار، واستحم: اغتسل... والحمّام: كشدّاد، الديماس مذكر، والجمع حمامات.[١] ولقد عُرف بناء الحمامات العامة لغرض الاستحمام في مناطق الحضارات القديمة، ولا سيما منطقة بحر إيجة منذ العهد البرونزي في الألف الثالث قبل الميلاد، ثم تطورت تطورًا كبيرًا خلال العهد الروماني،[٢] ومن ثم استلهمها المسلمون في عمارتهم لما استتب لهم الأمر.

لقد كان عدد الحمامات في المدينة حسب تطورها ونموها ديموغرافيًا ومعماريًا، ولقد انقسمت الحمامات إلى نوعين: حمامات خاصة وهي تلك التي وجدت في منازل بعض الأثرياء بشكل عام، وحمامات عامة وهي تلك التي كانت لعامة الناس، وهي التي نريد دراستها عبر هذه الصفحات، ولقد كان هذا النوع يُبنى بجوار المساجد الجامعة أو مساجد الأحياء وسط المدينة أو أحيائها السكنية، والحمامات المغربية هي استمرار للحمامات الإسلامية السابقة لها، وامتداد لها دينيًا واجتماعيًا ومعماريًا.[٣]

إن المعلومات تنقصنا عن الحمامات المغربية الأندلسية قبل القرن ٦-٧هـ/١٢-١٣م، ولقد كانت تلك التي تعود للقرن ٥-٦هـ/١١-١٢م قليلة لا تُمكِّن من إعطاء نظرة شاملة لنظامها، غير أنه من المعلوم أنها تشابهت في عمارتها من وجود الغرف الثلاثة الأساسية، الغرفة الباردة، الدافئة والساخنة، فمثلاً حمام قصر المنار في قلعة بني حماد في المغرب الأوسط تشابه مع حمام مدينة الزهراء في الأندلس، كما تشابه مع الحمامات الأموية في المشرق، من وجود مدخل، قاعة خلع الملابس، القاعات الرئيسية الثلاثة، ولا شك أن النظام المعماري لهذه الحمامات كان هو النظام السائد في حمامات مدن المغرب وقراه...، ولقد استمر النظام المعماري لحمامي مدينة الزهراء وقلعة بني حماد كنظام للحمامات المرابطية والموحدية.[٤]

وبخصوص حمامات القرنين ٧-٨هـ/ ١٣-١٤ميلاديين، فقد تشابهت فيما بينها، ولها مخطط موحد، وهي بسيطة، وتشبه

الحمامات السابقة في عناصرها المعمارية،[٥] فحمام زاغورة المرابطي به قاعة خلع الملابس، قاعة باردة، دافئة وساخنة، وحمام الصباغين بتلمسان أيضًا له نفس التخطيط، وفي العهد الحفصي والزياني والمريني تضاعف عدد الحمامات في المغرب الإسلامي، ومن أمثلة الحمامات المرينية حمام قصبة وجدة أمام المسجد الجامع وهو يشبه الحمام الذي ذكره ابن أبي زرع الفاسي، وقد بناه السلطان أبو يعقوب المريني سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، وحمام العُباد في تلمسان، يشبه إلى حد بعيد حمام وجدة.[٦] واستمر هذا التخطيط بشكله العام ينتهج إلى أن دخل العثمانيون المنطقة.

(١) الحمامات العثمانية

لكي نعطي فكرة عن الحمامات العثمانية في الجزائر فإن ما توفر عندنا من المراجع هو وصف لبعض حمامات العاصمة، يقول وليم سبنسر: "لقد بُنيت حمامات واسعة من طرف حسن باشا، ومحمد بن صالح رايس قائد البحرية الجزائرية الكبير، وجهزت بالماء الساخن والبارد، وكانت تضاهي أحسن الحمامات في القسطنطينية".[٧] ومن خلال هذا الوصف يتضح أن حمامات الجزائر في فترة العثمانيين أصبحت على نسق حمامات العاصمة العثمانية في تركيا، وبالتالي فإن النمط المعماري قد انتقل إلى الجزائر، ومما يدل على أن الحمامات في هذه الفترة قد كثرت قول وليم سبنسر نقلاً عن نيكولاي Nicolay في وصف الجزائر: "توجد من وراء البلاط الملكي بيوت رائعة تعود ملكيتها للخواص من الرجال وإلى جانبها عدد كبير من الحمامات" ونقل هايدو أنها بلغت الستين حمامًا،[٨] وهذا أمر مسلم به إذ أن بقاء العثمانيين لمدة تجاوزت الثلاثة قرون لا شك وأنه نتج عنه العديد من العمائر العسكرية والدينية والمدنية، ونحاول بعد قليل إعطاء صورة نظرية لما كانت عليه هذه الحمامات.

(٢) الأهمية الاجتماعية والصحية للحمام

بالإضافة إلى دورها في النظافة كما هو الأصل الذي وجدت من أجله، إلا أنه كان لها دور اجتماعي أيضًا، حيث يلتقي فيه الرجال مع بعضهم، والنساء كذلك مع بعضهن، وفيه يتفق على الزواج أو بدايته أو مبادرته الأولى، وهذا ما يزال منتشرًا إلى حد ما في وقتنا الحالي، وفيه يتحدث على مراسيم الدفن، وفيه أيضًا يُتفق على الأعمال التجارية، كما تحكى فيه الحوادث العائلية.[٩] وإلى جانب دورها الاجتماعي هذا فإنها كانت تُعالج فيها بعض الأمراض أو تتسبب في عدم وقوعها، ومن الأمراض التي تداوى فيه التهاب اللوزتين، وقد حضر "فيلهم شيمبر" الألماني كما نقل ذلك دودو طريقة معالجتها قال: "دخل إلى الحمام شاب انتفخت لوزتاه عند فكه الأسفل واستحم ثم اتجه إلى رجل كبير السن كان جالسًا في الرواق، ومع أنه لم يكن طبيبًا فقد اضطجع الشاب أمامه فوضع يديه فوق لوزتيه وضغط عليها بشدة رافعًا إياه من الأرض لمدة طويلة، ثم أعاده إلى مكانه وقد اعوج وجه الشاب الذي فتح عينيه برهة ثم أغمضهما وقد بدا عليه أنه فقد وعيه تمامًا، وعندما استيقظ ثانية ونظر حوله مستغربًا كرر الشيخ العملية معه مرة ثانية وثالثة إلى أن غاب الشاب عما حوله مدة طويلة، وبالتالي فتح عينيه وتنفس بقوة واستحم من جديد ثم غادر الحمام وقد شفي من مرضه".[١٠]

وبالإضافة إلى علاج التهاب اللوزتين نذكر أن الحمامات نافعة للأمراض الباطنية وذلك إذا شرب ماؤها، وهذا يختص بالحمامات الطبيعية التي يجري ماؤها على معادن معينة وهو إنما يُعلم نفعه بالتجربة، وهي أيضًا نافعة لاختلال العقل بسبب سوء مزاج بارد أو يابس وبالتالي تعالج بالرطوبة، ومنها ما هو نافع لبعض حالات العقم التي مردها إلى سوء مزاج يابس، كما أن الحمامات نافعة للأمراض الظاهرة مثل علة تولد القمل في الرأس، وعلة البرص، وأيضًا لبعض الحميات.[١١]

(٣) عمارة الحمامات العثمانية

هذا بصفة عامة لأهمية الحمامات الاجتماعية والدينية والصحية، أما بالنسبة لعمارتها وهو ما نحن بصدد الكلام عنه هنا، فلدينا وصفين أحدها لـ "كاثكارت الأمريكي" الذي كان أسيرًا في قصر الداي، والآخر لـ "وليام سبنسر" الذي قضى مدة في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي يقول كاثكارت أن حمام قصر الداي يشبه الحمامات الموجودة بالمدينة، إلا أنه أصغر حجمًا منها، والحمامات التركية مبنية على طراز واحد فنجد أولا غرفة صغيرة مؤثثة مخصصة لنزع الملابس، ثم غرفة أخرى دافئة يجلس فيها المستحم حتى يتصبب عرقًا ومنها يدخل إلى الغرفة الساخنة أين ينظف جيدًا وبدلك ثم يعود أدراجه إلى الغرفة الدافئة ثم إلى القاعة الأولى، وحمام الداي مفروش بالمرمر ومزين بالآجر المستورد من جنوة، وتعلوه قبة فيها نوافذ صغيرة وثقوب تسمح بتسرب ضوء النهار والهواء ويضيف قائلاً: "بأن جميع الحمامات في هذه الأيالة بل وفي جميع بلاد المغرب بُنيت على أساس نفس القواعد والمبادئ وهي كلها مزخرفة بدرجات متفاوتة".[١٢]

أما سبنسر فيقول: "كانت بناياتها واسعة ونظيفة مضاءة من السقف ومجهزة بالماء البارد والمسخن، يدخل المستحم فيدفع أجره بورقتين اثنتين،[*] ثم يضع ثيابه في غرفة خارجية واسعة، ومنها يمر عاريًا[**] إلى حجرة أخرى عريضة قد قسمت إلى مكعبات تتسع كل منها أشخاص يتراوح عددهم بين (١٠ و ١٢) شخص، وفي كل مكعب يمر الماء المسخن عبر أنابيب البرونز المقامة على الحيطان والمعممة لسحابات البخار الساخن المعبأ بالرائحة الذكية، ... وبعد استراحته في هذه الوضعية الباعثة على النوم ولعدة دقائق يظهر إثنان من الهزميتسز Hizmetcis (أي الخدم أو المدلكين) الأقوياء فيمططون في جنباته حتى تتطرطق جميع مفاصله، ويقلبونه كالخبز الناعم، ثم يحكون على جسمه بقفازات لا ظفر لها فيخرجون أكثر من الرطل،[١٣] وبعد أن يتم كل هذا يعود المستحم إلى غرفة الملابس على الطريق الذي دخل منه، فيتناول كوبًا من الشربت[***] يمده بها عون آخر، وبعد أن يبُخ عليه عون ثالث بماء الزهر يلبس ثيابه ثم

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

يغادر المكان ودمه يسير في دورة غير عادية من الحيوية، ويحيط به شعور عام من النشاط يسري في كل جسمه المنبعث بحيوية جديدة ونشاط".

ويضيف قائلاً: "ولقد كانت حمامات النساء تشبه حمامات الرجال، ولكن الإجراءات كانت أكثر طراوة والزبائن كان أمامهن وقت كثير ومناسبات أقل للتجمع مع الأصدقاء، فبعد أن تنجز السيدات مختلف مراحل البخار في الحمام ذاته يقوم الرجال الخدم(****) الهزميتسز Hizmetcis بغسلهم من الرأس إلى القدم مستعملين ماء الزهر ويبُخون علهن بالمسك والعطور الأخرى، وبعد هذا تصبغ حواجبهن ثم يلبسن ثيابهن التي تكون قد علقت من البداية في معالق تحتوي على أريج عود القمار المشتعل، وتنتظرهن في غرفة الملابس ليس فقط الشربت ولكن الفاكهة والجوز وحلويات أخرى تشمل الحلوة المفضلة لدى الأتراك (الحلقوم Lukum) ونوعًا من حلوة أصابع العروس، كما تقوم المؤسسة أيضًا بتهيئة جو موسيقي وتحضير فتيات للرقص، وفي هذا الجو المبهج تقضي الجزائريات يومًا من أيام الأسبوع.[١٤]

(٤) الحمامات العثمانية المدروسة

لدينا نماذج متنوعة، اخترنا منها حمام من مدينة قسنطينة[١٥] في الشرق الجزائري، وآخر من مدينة تلمسان[١٦] في الغرب الجزائري، وثالث من مدينة مليانة في الجهة الوسطى من الجزائر، وثلاث حمامات من مدينة البليدة والتي لا تبعد كثيرًا عن العاصمة (الجزائر). فمن خلال مخططاتها العامة فهي مربعة إلى مستطيلة في الغالب (أنظر المخططات). مداخلها غير مباشرة بحيث أننا ندخل إلى سقيفة والتي نجد بها مصطبات للجلوس والانتظار كما هو الحال في حمام قسنطينة ومليانة وتلمسان وحمامات البليدة، غير أنه في حمامين من حمامات البليدة وُسِّعت السقيفة لتصبح على شكل قاعات انتظار (أنظر المخططات).

القاعة الباردة:

في الحمامات المدروسة نجد هذه القاعات واسعة حيث جُعل جزء منها كغرفة ملحقة كما هو الحال في كل من حمام تلمسان وحمامي شارع الباي وشارع رنجة بالبليدة، وانفرد حمام تلمسان بوجود قبة في هذه الغرفة، كما نجد عنصر آخر وهو النافورة والتي شغلت وسط هذه القاعة في كل من حمام قسنطينة وتلمسان ومليانة وحمام شارع رنجة، وانفرد حمام سيدي سليمان بتلمسان بوجود عين في الجدار الذي يوجد على يسار الداخل إلى هذه القاعة وهي تشبه تلك العيون الموجودة في القصور العثمانية بالجزائر العاصمة كقصر عزيزة وقصر خداوج العمياء (متحف الفنون والتقاليد الشعبية حاليًا).

وفي هذه الحمامات، باستثناء حمام شارع الباي بالبليدة، نجد أن الغرفة الباردة بها أعمدة ودعامات تحمل أقواسًا تنفصل الغرفة بسبب ذلك إلى جزءين، الجزء الأوسط والذي تكون أرضيته منخفضة مقارنة مع الجزء الثاني المحيط به والذي خصص للاستراحة والاستلقاء بعد الخروج من الحمام. ونجد بهذه الغرفة أيضًا المكان المخصص لصاحب الحمام (الحمامي). هناك شيء مهم أيضًا بهذه القاعة وهو المكان المنفرد فوق الجزء المسقوف والمخصص للاستراحة، ونصل إليه بواسطة درج، وهذه الظاهرة لا نجدها في الحمامات السابقة كالحمامات المرابطية والمرينية (أنظر مخططات: الحمام المرابطي بندرومة، حمام الصباغين، حمامين مرينيين). أمر آخر وهو البلاطات الخزفية المستعملة بشكل لافت للنظر في معظم جدران هذه القاعة.

القاعة الدافئة:

في كل الحمامات المدروسة تكون هذه القاعة صغيرة الحجم مقارنة مع الغرفتين الباقيتين، وهي إنما جعلت حلقة وصل بينهما، بحيث أن المستحم لا ينتقل مباشرة من البرودة إلى الحرارة المرتفعة، ولا من الحرارة إلى البرودة مباشرة، لأن ذلك قد يؤدي به إلى المرض، لذلك جعلت هذه الغرفة الوسطية والتي تكون حرارتها معتدلة، وهي بالإضافة إلى هذا مكان استراحة لمن تؤثر الحرارة العالية عليه، حيث شغلت هذه الغرفة بمصاطب للجلوس في سائر جوانبها، أما تسقيفها فهو بقبو نصف أسطواني.

الغرفة الساخنة:

إذا استثنينا حمام تلمسان الذي سقفت غرفته بقبو نصف أسطواني، فإن الحمامات الباقية قد احتوت غرفتها الساخنة على قبة وسطية تحيط بها أقبية نصف أسطوانية، غير أن حمام البركة بمليانة قد نزعت قبته ولم يبق منها إلا الرقبة، وقد غطي مكانها بسقف مسطح من الزجاج مدعم بقضبان حديدية. وفي كل قاعة من هذه الحمامات نجد بها غرف جانبية، ففي حمام قسنطينة هناك جزء فصل من هذه الغرفة بعقدين كبيرين شكلا شبه غرفتين، وفي حمام تلمسان نجد به ستة غرف جانبية، وفي كل من حمام مليانة وحمام شارع رنجة وحمام شارع الباي بالبليدة نجد غرفة واحدة، أما الحمام البليدي الثالث وهو حمام بوعلام بن الشريفة باشا آغا لا نجد به مثل هذه الغرف. بالنسبة لأحواض المياه فقد احتوت هذه القاعات على حوضين أحدهما للماء الساخن والآخر للماء البارد باستثناء حمام مليانة الذي جعلت به أحواض صغيرة تكفي الشخص الواحد. وأما مُلحقات الحمام التي نجد من ضمنها الفرن، ومكان وضع مواد إشعال النار، وكذا خزانات المياه، فقد اختلفت في أحجامها غير أنها متشابهة في نظامها وتنظيمها.

بخصوص الفرن، يكون مستواه منخفضًا عن مستوى غرف الحمام الداخلية، وهو لا يكون بعيدًا عن الغرفة الساخنة لأنه يمدها بالحرارة التي تمر أسفل هذه القاعة وفي جدرانها، كما أن موقعه هذا يسهل عملية إيصال الماء الحار إلى الغرفة الساخنة عن قرب دون الحاجة إلى عدد كبير من القنوات، ويزود الفرن بقدور من النحاس (البرمة) التي يسخن فيها الماء. ومن جهة أخرى؛ نجد بجانب موقع الفرن (غرفة الحرق) فراغ واسع خصص لاستقبال

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المواد القابلة للاشتعال التي تستعمل في إذكاء النار. وبنفس القسم (أي قسم الملحقات) غالبًا ما نجد أحواض المياه قريبة من الغرفة الساخنة، كما هو الحال في الحمامات المدروسة باستثناء حمام البركة في مليانة، فإن حوض الماء البارد وجد فوق القاعة الدافئة في جزء منفصل.

(٥) مقارنة الحمامات المدروسة مع بعض الحمامات السابقة

لدينا نموذجين لحمامين مرابطيين وحمامين مرينيين؛ ففيما يخص **الحمامات المرابطية** لدينا الحمام البالي في مدينة ندرومة بالقرب من مدينة تلمسان في الغرب الجزائري، وحمام الصباغين في تلمسان الذي يغلب على الظن أنه مرابطي من خلال ما ذكره جورج مارسي، فمن خلال مخططهما نجدهما لم يخرجا عن نظام الحمامات السابقة المتمثلة في الغرف الثلاثة، وكذا الملحقات، غير أن حمام الصباغين وجدت به سقيفة تسبق الغرفة الباردة.

بالنسبة للتسقيف، نجد بحمام البالي الغرفة الباردة مغطاة بأقبية نصف أسطوانية، أما حمام الصباغين استعمل فيه قبة وسطية تحيط بها أقبية نصف أسوانية وهي قبة مثمنة، كما نجد أيضًا نافورة ماء وسط هذه القاعة ولعلها محدثة في فترات لاحقة. وفيما يتعلق بالغرفة الدافئة في حمام ندرومة نجد تسقيفه بقبة وسطية تحيط بها أقبية نصف أسطوانية، أما حمام الصباغين فغرفته مغطاة بقبو نصف أسطواني. الغرفة الساخنة في كل من الحمامين مغطاة بقبو نصف أسطواني، وبهما حوضين أحدهما للماء البارد، والآخر للماء الساخن، وحمام ندرومة به غرفة صغيرة إضافية. الفرن في كلا الحمامين يقع خلف الغرفة الساخنة.

بالنسبة **للحمامات المرينية** لدينا أيضًا نموذجين؛ حمام العُباد في تلمسان، وحمام الرباط في المغرب الأقصى، نجد إضافة إلى الغرف الثلاثة المعروفة، سقيفة وغرفة أخرى إضافية تتوسط الغرفة الباردة والغرفة الدافئة، وهي ظاهرة جديدة في عمارة الحمامات المغربية. أما الغرفة الباردة فهي مغطاة بقبة وسطية تكتنفها أقبية نصف أسطوانية وأخرى متقاطعة. الغرفة الباردة الثانية تسقيفها نصف أسطواني. والغرفة الدافئة تسقيفها نصف أسطواني وحمام الرباط به قبة وسطية. أما الغرفة الساخنة تسقيفها نصف أسطواني وبها أحواض للماء الحار والبارد. ويقع الفرن خلف الغرفة الساخنة ومعه مخزن أو مكان استقبال مواد الإشعال.

خلاصة: (خصائص الحمامات العثمانية)

من خلال مقارنة بسيطة بين النماذج العثمانية والنماذج السابقة لها يتضح لنا بأن كل العناصر المعمارية الموجودة في الحمامات العثمانية وجدت في الحمامات السابقة، كالغرف الثلاثة وقسم الملحقات من فرن ومخزن وصهريج وأيضًا التسقيف بالأقبية والقباب، ولعل أهم ما يميز الحمامات العثمانية هو:

- المكان المخصص فوق جزء من سقف الغرفة الباردة.
- نافورة الماء بوسط الغرفة الباردة، ولعل تلك الموجودة في حمام الصباغين مضافة.
- استعمال البلاطات الخزفية المتنوعة في الغرفة الباردة.
- العين التي وجدناها في حمام سيدي سليمان في تلمسان.
- ونضم إلى هذا الخدمات التي ذكرها الغربيون كـ هايدو، وسبنسر، والمتمثلة في تقديم الشاي والحلوى والفاكهة والتّطيب بالعطر والرقص والموسيقى.

الملاحق

(١) الأشكال

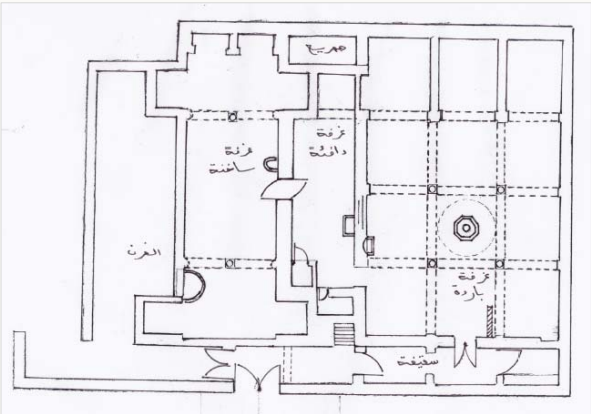

شكل (١)

حمام سيدي سليمان في تلمسان (عن: مكتب دراسات)

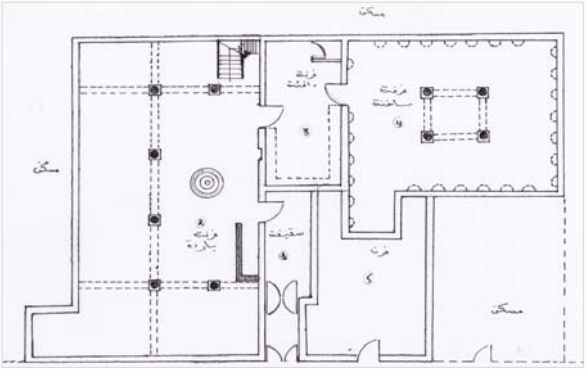

شكل (٢)

حمام مدينة مليانة (من عمل الباحث) السلم

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

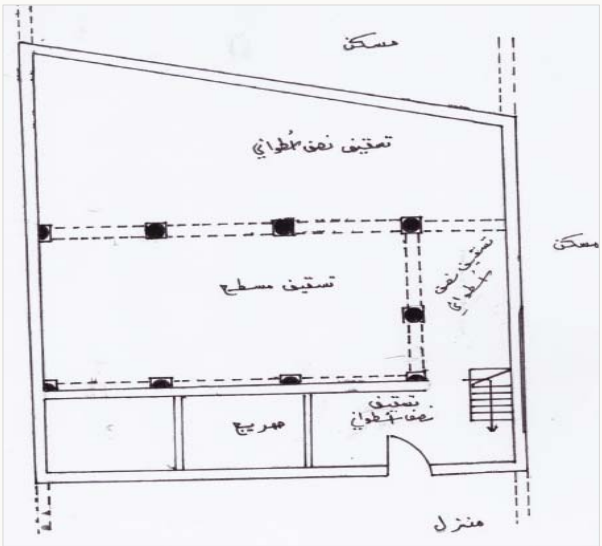

شكل (٣)

الطابق الأول في حمام مليانة (من عمل الباحث)

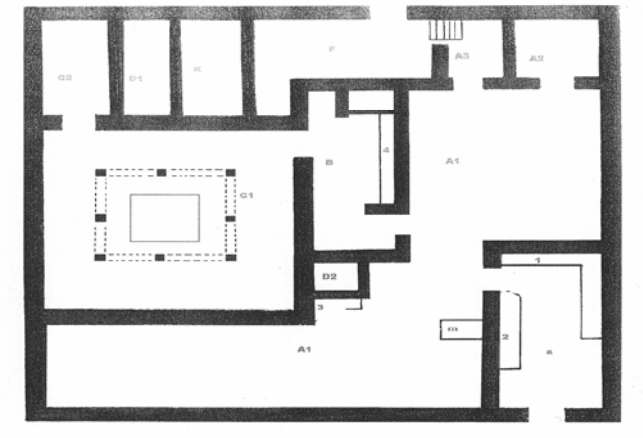

شكل (٤)

مخطط حمام شارع الباي في البليدة (عن: عز الدين حصري)

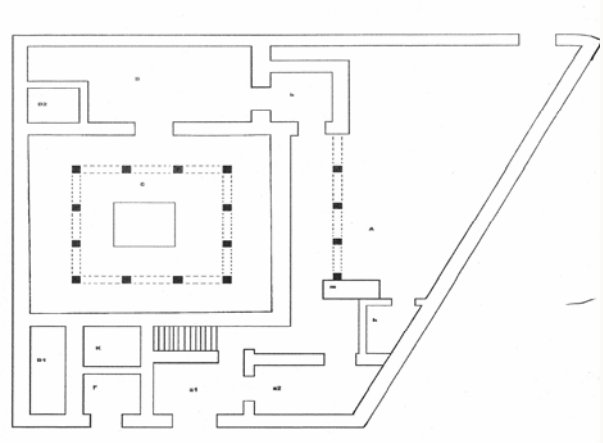

شكل (٥)

مخطط حمام بوعلام بن شريفة باشا آغا في البليدة

(عن: عز الدين حصري)

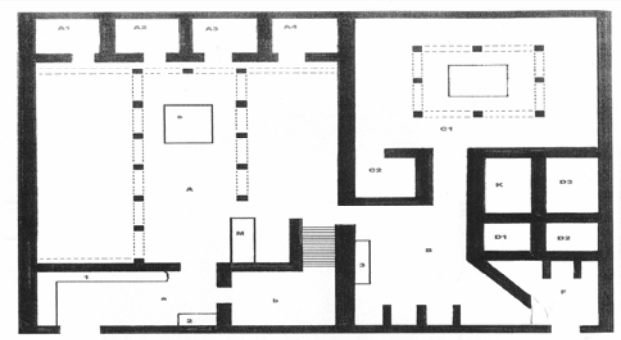

شكل (٦)

مخطط حمام شارع رنجة في البليدة (عن: عز الدين حصري)

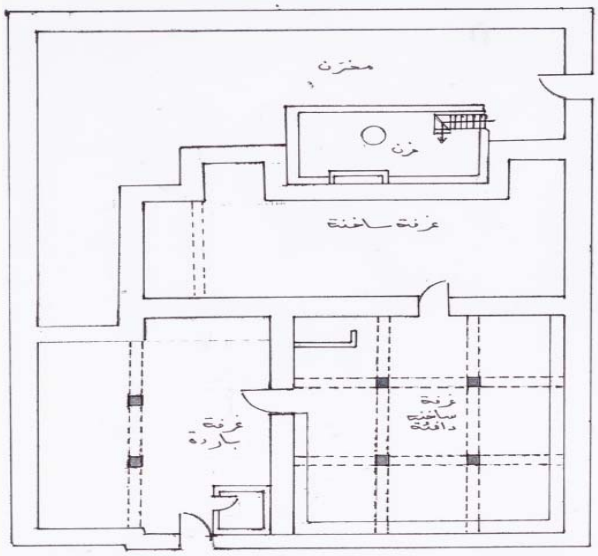

شكل (٧)

حمام البالي بندرومة (عن: محمد رابح فيسة بتصرف)

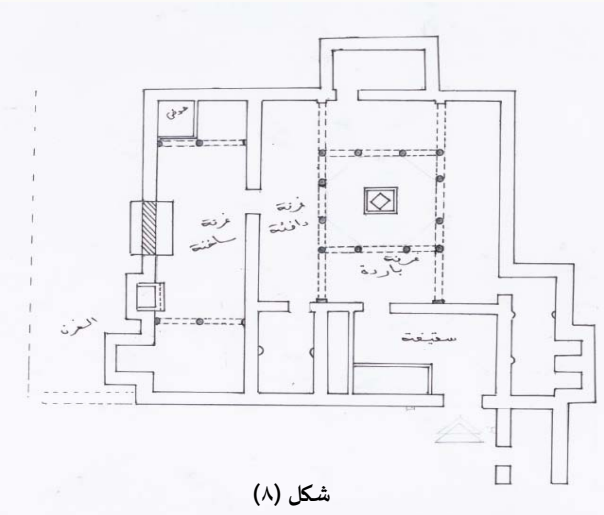

شكل (٨)

حمام الصباغين في تلمسان (عن: George Marçais)

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

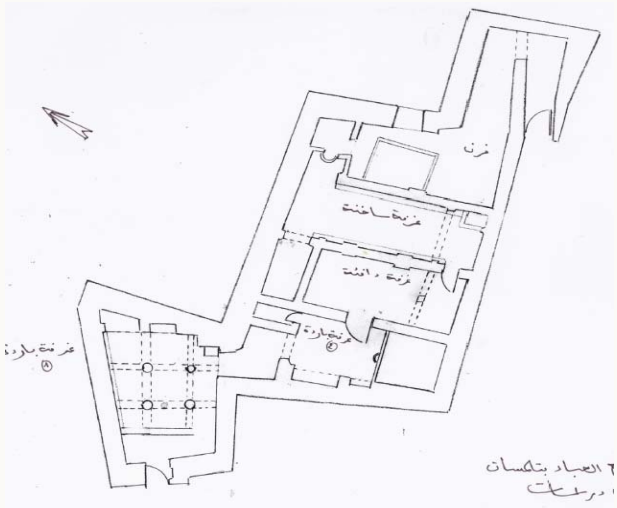

شكل (٩)

حمام العباد المريني في تلمسان (عن: مكتب دراسات في تلمسان)

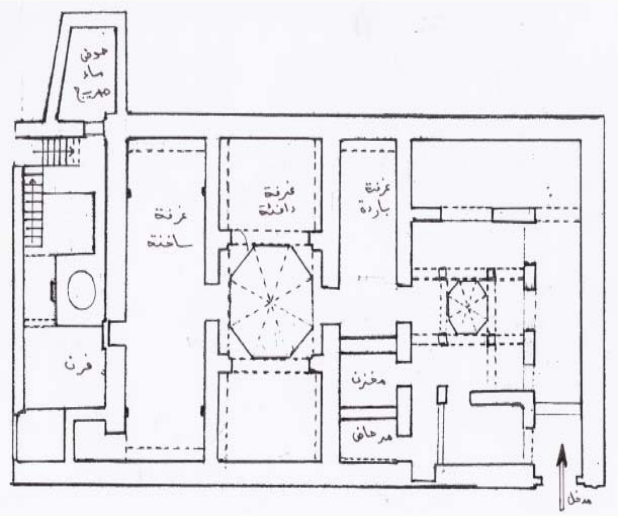

شكل (١٠)

حمام مريني في الرباط (المغرب)

(عن: ENCYCLOPEDIE De L'ISLAM)

(٢) الصور

حمام متيقة

حمام تمسان

حمام قسنطينة

مداخل الحمامات

حمام متيقة

حمام تمسان

حمام قسنطينة

الغرفة الباردة

حمام تمسان

حمام متيقة

حمام قسنطينة

الغرفة الدافئة

نافورة متيقة

نافورة تمسان

نافورات بالغرفة الباردة

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

حمام قسنطينة

حمام منيلة

التطبيق الأول في الغرفة الباردة

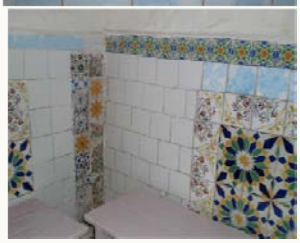

بلاطات خزفية بحمام تلمسان

فرن بحمام قسنطينة

الهَوامِشُ:

(١) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٨١٧ هـ)، **القاموس المحيط**، رتبه ووثقه، خليل مأمون شيحا، ط٤، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ٣٢٣. زين الدين محمد بن أبي عبد القادر الرازي(ت٦٦٦هـ)، **مختار الصحاح**، ط٣، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت- لبنان، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص١٥٠. عاصم محمد رزق، **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، ط١، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠م، ص٨٤.

(٢) عاصم محمد رزق، مرجع سابق، ص٨٤.

(٣) عبد العزيز لعرج، **المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية**، ج١، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، ١٩٩٩م، ص٤٤١.

(٤) المرجع نفسه، ج١، ص٤٤٢-٤٤٨ بتصرف.

(5) Marçais G. ***Manuel d'Art Musulman, l'Architécture Tunisie, Algerie , Maroc, Espagne, Sicile***, ed. Auguste picard, Paris-France, 1927, P558.

(٦) علي ابن أبي زرع الفاسي(ت٧٤١هـ)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في ذكر ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة-الرباط، ١٩٧٢م، ص٢٦٦. عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ج١، ص٤٤٨-٤٥٠.

(٧) وليم سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب وتعليق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠، ص٤٥.

(8)Diego de HAEDO, ***TOPOGRAPHIE ET HISTOIRE GENERALE D'ALGER***, Traduit de l'espagnol par Monnereau et A.berbrugge, présentation de Jocelyne Dakhlia, Editions Bouchene, 1998, p225 . voir :

- وليم سبنسر، مرجع سابق ، ص٤٤.

(٩) وليم سبنسر، مرجع سابق، ص٩٥.

(١٠) أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان (١٨٣٠-١٨٥٥م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر، ص١٤.

(١١) أنظر:- فضيلة بوعمران، **طرق علاج الأمراض في مخطوطات الطب العربي الأندلسي**، قراءة في كتاب "التيسير في المداواة والتدبير" لأبي مروان ابن زهر الإيادي الإشبيلي، المخطوطات العلمية أعمال الملتقى المغاربي الثالث للمخطوطات، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر)، ٢٠٠٧م، الصفحات (١١٠-١٣١)، ص١٢٠-١٢١. بن عمر حمدادو، قراءة في رسالة مخطوطة في الطب "**التداوي بالحمامات السخنة المعدنية**، حمام الأنف المعروف بالديار التونسية نموذجًا" للشيخ محمد بن حسين بيرم التونسي (١١٣٠-١٢١٤هـ/١٧١٨-١٨٠٠م)، المخطوطات العلمية أعمال الملتقى المغاربي الثالث للمخطوطات، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر)، ٢٠٠٧م، الصفحات(١٥٢-١٦٤)، ص١٥٧-١٥٨.

(١٢) جمس ليندر كاثكارت، **مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**، ترجمها عن الإنجليزية وعلق عليها وقدم لها إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر، ١٩٨٢م، ص٩٣-٩٤.

(*) هي فيما يظهر عملة ورقية.

(**) ليس للمسلم أن يكون عاريًا فلعله بإيزار كما هو الحال عند عامة المسلمين فذكره هنا على سبيل التغليب لما يرى عامة جسده عاريا.

(١٣) لعل هذا الكلام مبالغ فيه إلا إذا كان الذي دخل إلى الحمام من الجند الذين كانوا في جهاد وطال عليهم الزمان لدخول الحمام، وإلا فالمشاهدة تنفي ذلك خاصة إذا كان دخول الحمام مرة في الأسبوع.

(***) هو الشاي على ما يبدو.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(****) هذا الذي ذكره هنا غريب جدًا وحتى لو كان هؤلاء الخدم مخصيين أو مخنثين فلم نسمع في الإسلام بمثل هذا، كما أن وصف الحمام يشك أنه خاص بالطبقة الراقية إذ كما قال ابن خلدون يجب أن نقيس الشاهد بالغائب وليسوا بعيدين عنا جدا في التاريخ، وحتى لو كان هذا الأمر خاص بالطبقة البرجوازية فلا يسمح الرجال لحريمهم أن يغسلهن الخدم اللهم إلا الخادمات.

(١٤) وليم سبنسر، مرجع سابق، ص٩٥-٩٦.

(١٥) مدينة قسنطينة بالشرق الجزائري باعتبارها عاصمة إقليمية.

نقول باختصار أن قسنطينة بعد الفتح الإسلامي كانت تحت حكم ولاة الأمويين ثم ولاة العباسيين إلى أن دخلت تحت لواء دولة الأغالبة الحاكمين في المغرب الأدنى باسم العباسيين، ثم سقطت في يد الشيعة الفاطميين ثم خلفاؤهم على المغرب الزيريين، وبظهور الحماديين أصبحت تحت حمايتهم وظلت كذلك إلى مجيء الموحدين، ولما انقسمت الدولة الموحدية كانت قسنطينة من نصيب الحفصيين، وبعد ضعف هؤلاء خضعت لعرب الصاولة حينا ولرؤساء بعض الأسر القسنطينية حينا آخر مثل آل باديس، آل الفقون، آل المقراني الأدارسة، إلى أن تغلب عليها الأتراك العثمانيون وكان ذلك حوالي ٩٣٢هـ/١٥٢٥م. ففي شكلها العام أصبحت قسنطينة مقسمة إلى أربعة أحياء كبيرة وهي حي القصبة وهو الحي العسكري الذي يقع في الشمال الشرقي للمدينة، حي الطابية الحي الرسمي ويتضمن القصر والمسجد الرئيسي ويقع في الشمال الغربي للمدينة، حي القنطرة وتسكنه الطبقة الميسورة في الجنوب الشرقي، حي باب الجابية خاص بالطبقة المتوسطة والفقيرة ويقع في الجنوب الغربي للمدينة.

في ظل هذا التطور الذي بلغته مدينة قسنطينة سياسيا وتجاريا واقتصاديا وعمرانيا، تطور النظام المعماري للحمامات التي نحن بصدد دراستها، ولإعطاء صورة واضحة لطرز الحمامات العثماني بقسنطينة اخترنا أحد النماذج، والذي يقع في سوق الغزل في حي الطابية أو الحي الرسمي أي في الجهة الشمالية الغربية مقابل الجامع الكبير بقسنطينة في الجهة الشرقية منه، عن هذه الأحداث أنظر:

- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعمودي، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م، ص٨٤-١٠٣. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج٢، ص١٠٨، ج٣، ص١٥٥-٢٠٤. عبد العزيز فيلالي ومحمد الهاي لعروق، **مدينة قسنطينة دراسة التطور التاريخي والبيئة الطبيعية**، ط١، دار البعث قسنطينة-الجزائر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٦٨-٧٧. محمد الهادي لعروق، **مدينة قسنطينة دراسة في جغرافية العمران**، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون-الجزائر، ١٩٨٤م، ص٥٦، ص٨٥، ص٩٣-٩٥. هاينريش فون مالتسن، **ثلاث سنوات فس شمال غربي إفريقيا**، ترجمة أبو العيد دودو، ج٣، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، ١٩٨٠م، ص٣٣.

(١٦) مدينة تلمسان مدينة بالغرب الجزائري أصبحت عاصمة لبايلك الغرب في وقت لاحق، وكانت من قبل عاصمة للدولة الزيانية، وعن انضمامها للدولة العثمانية فهذا باختصار ما حدث، بعد أن استقر عروج في الجزائر ووطد أركان الدولة سنة ١٥١٦م، اتجه إلى الغرب وبدأ بمدينة تنس واستطاع أخذها سنة ١٥١٧م، ولم يكد يستقر بعروج المقام بتنس حتى اتجه إلى تلمسان بدعوة من أهلها واستطاع أن يهزم الأمير الزياني وولّى مكانه غيره، وبعد مدة نبذ هذا الأخير تبعيته للعثمانيين، فعاد عروج إلى تلمسان وأخمد نار الفتنة واستقر في تلمسان، ثم عاد الأمير المخلوع مع الإسبان واستطاعوا أن يدخلوا تلمسان.

بقيت الأمور على حالها في تلمسان بسبب الصراع بين الإخوة، أحدهم يدعمه الإسبان والآخر العثمانيون من سنة ١٥٤١م إلى عام ١٥٥٤م حيث اجتمع مجلس العلماء وقرر خلع الأمير الظالم الحسن بن عبد الله الثاني، وأعلن صالح رايس الحاكم آنذاك بالجزائر نهاية دولة بني زيان وانضمام تلمسان نهائيا إلى الدولة الجزائرية، ومن المؤرخين من يرى أن الانضمام التام إنما كان عام ٩٦٦هـ/١٥٥٨م. يظهر من هذا أن الأتراك بقوا في تلمسان قرابة ثلاثة قرون، ولكن الظاهر أنهم لم يختلطوا مع سكان المدينة إذ بقوا ذلك العنصر الغريب الذي جاء في زي عسكري وبقي كذلك رغم أن بعضا منهم تزوج في تلمسان وأنجبوا الجيل الجديد للمولدين أو من يسمون بالكراغلة، ورغم طول هذه المدة التي قضوها بالمدينة إلا أن آثارهم بها قليلة مقارنة بمن سبقهم يقول محمد عمرو الطمار: "وذلك لأن السياسة التركية كانت قائمة على التخوف من السكان الجزائريين وعلى حرمان هؤلاء من مناصب الإدارة والحكم كما فعلت رومة من قبل وفرنسا من بعد، فإن خطتهم كانت خطة استعمارية محضة، بقوا طويلاً في تلمسان ومع ذلك طالما بحثنا عن آثارات تركية بالمدينة فلم نعثر على شيء إلا ما كان من بعض الأسماء"، وعلى كل حال فلسنا مع محمد بن عمرو الطمار أن هدفهم استعماري لأنه لو كان كذلك لدخلوا إلى تلمسان بالقوة ولفعلوا ذلك أيضًا كلما عادوا إليها لطرد الإسبان، ولكنهم والحق يقال فمنذ عهد عروج وأهل تلمسان هم الذين استنصروا بالعثمانيين ضد ملوكهم الذين والو الإسبان واستجابوا لنداء الجهاد في كل مرة، وإن كانت لهم أخطاء فهي مغمورة في بحر حسناتهم، إلا أننا نوافقه إلى حد بعيد في قوله أن آثارهم في تلمسان قليلة. أنظر عن هذه الأحداث:

- أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر، ص١٨٤-١٨٥، ص١٨٦-١٨٩ ص٣٢١-٣٢٩، ٣٤٣، ٣٧١-٣٧٦. وانظر: محمد بن عمرو الطمار، **تلمسان عبر العصور دورها في سياسة و حضارة الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر، ص٢٢٩-٢٣٠، ص٢٣٣-٢٣٤، ص٢٣٨. ستانلي لين بول، **الدول الإسلامية** يبحث عن ١٨١ دولة إسلامية مع إضافات بارتولد و خليل أدهم، نقله من التركية إلى العربية محمد صبيحي فرزات، أشرف على ترجمته وعلق عليه محمد أحمد دهمان، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص١٠٢، ص ١٠٤. كورين شوفاليه، **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة الجزائر ١٥١٠-١٥٤١م**، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون-الجزائر، ص٣٦، ص١٠٢. محمد على الصلابي، مرجع سابق، ص٢٧٠. عبد العزيز نوار، مرجع سابق، ص٦٨-٦٩. صالح فركوس، **تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الإستقلال المراحل الكبرى**، دار العلوم للنشر والتوزيع-الجزائر، ٢٠٠٥م، ص١١٤.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449